



أولاً: الثقافة الإسلامية

مفهوم الثقافة الإسلامية	”
أهمية الثقافة الإسلامية	”
مصادر الثقافة الإسلامية	”
التحديات التي نواجهها الثقافة الإسلامية وسبل مواجهتها	”
موقف المثقف المسلم من الثقافات الأخرى	”
الحوار بين الحضارات	”

مفهوم الثقافة الإسلامية

أ- تعريف الثقافة في اللغة :

استعمل العربُ مادة «ثَقَفَ» بمعانٍ متعددةٍ يرجعُ بعضها إلى أمورٍ معنويةٍ كما يرجع بعضها إلى أمورٍ حسيةٍ، وإن كانت دلالتها على الأمور المعنوية أكثر من دلالتها على الحسيات^(١).

فمن الأمور المعنوية:

الحِذْقُ، الفطنةُ، الذكاءُ، التهذيبُ، الظفرُ، التأديبُ، المصادفةُ، سرعةُ أخذ العلم وفهمه، ضبطُ المعرفةِ المتلقاةِ، تنميةُ الفكر والمواهب^(٢).

ومن المعاني الحسية:

تقويمُ المعوج، التسويةُ، كتسوية الرماح والسيوف، إدراكُ الشيء والظفرُ به، الغلبةُ، الأخذُ في قوة، الإصلاح، الوجود. وقد وردت كلمة «ثقف» في القرآن بما يتضمن هذه المعاني كقوله تعالى: ﴿إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً﴾.

ومن مجموع ما سبق نستنتجُ أن الدلالات اللغوية لمصطلح الثقافة واسعة ومتنوعة، تتناول الجانبَ المعرفي والجانبَ السلوكي.

أما عند الغرب فيدور معنى الثقافة في أصلها اللاتيني على فلاحَةِ الأرض وتنمية محصولاتها، ثم توسعت لتشمل المعنى المادي الحسي كما سبق، وتنمية العقل والذوق والأدب بالمعنى المعنوي^(٣).

(١) نظرات في الثقافة (ص: ١١).

(٢) معجم مقاييس اللغة، مادة: ثقف (١/ ٣٨٢)، ولسان العرب مادة ثقف، والمعجم الوسيط، مادة: ثقف.

(٣) المورد (ص: ٢٣٨).

ب- تعريف الثقافة في الاصطلاح:

إن مصطلح الثقافة لم يُعرّف تعريفاً واضحاً قاطعاً للجدل فكان معناها الاصطلاحيّ أوسع من معناها اللُّغويّ الذي سبق بيانه فتعددت الآراء حول مفهومها الاصطلاحيّ، وتكتفي بتعريف المجمع اللُّغوي الذي عرّفها بقوله: «جملة العلوم والمعارف والفنون التي يُطلب العلم بها والحذق فيها»^(١).

ج- العلاقة بين الثقافة وغيرها من المعارف:

هناك علاقة وطيدة بين الثقافة والعلم، وبينها وبين الحضارة، لذا يحسن بيان هذه العلاقات بين الثقافة وهذه المعارف المختلفة.

أولاً: العلاقة بين الثقافة والعلم:

العلم جملة من المعارف المتنوعة التي يحصل عليها المتعلم، والثقافة كذلك^(٢). فتقوم العلاقة بينهما على التشابه والتكامل.

أما من ناحية الاختلاف فتتميز الثقافة بالتنوع والشمول، فمن أخذ شيئاً من كل شيء فقد أصبح مثقفاً، وأما العلم فيتميز بالتخصص، فمن أخذ كل شيء تقريباً من شيء واحد فقد أصبح عالماً.

والثقافة طابعها شخصي تختلف من ثقافة أمة لأخرى، فثقافة الوثني والنصراني والهندوسي... إلخ. تختلف عن بعضها البعض، لأن كل ثقافة تستمد عناصرها من تصورها الديني في المقام الأول. أما العلم فطابعه موضوعي تتحد فيه النتائج، فالماء مثلاً يتكون من ذرات من الأكسوجين بالإضافة إلى ذرات من الهيدروجين (H_2O) وهذا في كل الثقافات.

(١) المعجم الوسيط مادة: ثقف (١/٩٨).

(٢) المرتكزات الأساسية في الثقافة الإسلامية (ص: ٣١).

فيتين مما تقدم أن ميدان الثقافة أوسع من ميدان العلم، وإن كان العلم يخدم الثقافة ويرشدُها، فهي لا تستغني عن العلم.

ثانياً: العلاقة بين الثقافة والحضارة:

الحضارة تتناول جملةً من مظاهر الرقي العلمي والفني والأدبي والاجتماعي التي تنتقل من جيل إلى آخر في جوانب الحياة المادية، أما الثقافة فهي جملة العلوم والمعارف التي يُطلب الحِذْقُ فيها، فالثقافة تهتم بالجوانب المعنوية والحضارة ألصق بالماديات، وهذا الفرق في الجانب النظري فقط.

أما في الجانب العملي فهما يرتبطان مع بعضهما ارتباطاً وثيقاً؛ لأن ثقافة كل أمة هي أساس حضارتها وفكرها وأسلوب حياتها^(١)، فالثقافة والحضارة متفقتان من هذه الناحية.

فالثقافة هي المظهر العقلي للحضارة، والحضارة هي المظهر المادي للثقافة.

د- تعريف الثقافة الإسلامية اصطلاحاً:

لكل أمة ثقافة خاصة بها، وأمة الإسلام تنفرد بثقافتها عن ثقافة سائر الأمم حيث تكتسب تميزها الخاص بين الثقافات في تحديدها أولاً، وفي مقوماتها وعناصرها وخصائصها ثانياً^(٢).

إن تعريفات الثقافة الإسلامية متعددة ويرجع هذا التعدد إلى:

١- جدية هذا المصطلح وحدائيته.

(١) لمحات في الثقافة الإسلامية (ص: ٤٢).

(٢) الثقافة الإسلامية تخصصاً ومادة وقسماً علمياً (ص: ١٣).

٢- اختلاف تصورات العلماء المعاصرين حول هذا المصطلح^(١).

وأقرب تعريف لها أنها: «معرفة مقومات الأمة الإسلامية العامة بتفاعلاتها في الماضي والحاضر، من دين، ولغة، وتاريخ، وحضارة، وقيم، وأهداف مشتركة بصورة واعية هادفة»^(٢).

ولعل هذا التعريف باهتمامه على موضوعات الثقافة الإسلامية الرئيسية، يكون أقرب التعريفات إلى الصواب.

(١) من التعريفات الجامعة التي تربط بين العلم والعمل والسلوك: «معرفة مقومات الأمة والدين المستفادة من مصادر الكتاب والسنة واجتهادات العلماء علماً وتطبيقاً». كما عرفت بأنها «العلم بمنهج الإسلام الشمولي في العقيدة والشريعة والأخلاق والحضارة تأثيراً وتطبيقاً».

(٢) دراسات في الثقافة الإسلامية (ص: ١١).

أهمية الثقافة الإسلامية

تتجلى أهمية الثقافة الإسلامية بالنظر إلى أهدافها وآثارها.

أ- أهداف دراسة الثقافة الإسلامية:

من أهم أهداف دراسة الثقافة الإسلامية ما يلي^(١):

- ١- تقديم التصور الصحيح الكامل والشامل للحياة والإنسان والكون من خلال تحديد علاقة الإنسان بربه وعلاقته بنفسه والآخرين وبالكون أجمع.
- ٢- إمداد الدارس بحصيلة مناسبة من المعارف المتعلقة بالإسلام عقيدةً وشرعيةً ومنهج حياة، وحضارة بوصفه دينًا عالمًا صالحًا للبشرية في كل زمان ومكان، وهذا يعطيه حصانة ضد تيارات الإلحاد المختلفة.
- ٣- تنمية رُوح الولاء للإسلام وتقديره على ما سواه من صور الانتشاءات الأخرى؛ مثل القومية والعرقية أو العنصرية؛ لأنّ الولاية تكون لله ولرسوله ﷺ وللمؤمنين. أي الولاء لما جاء في كتاب الله ﷻ وسنة نبيه ﷺ.
- ٤- إبراز النظرة الشمولية للإسلام باعتباره كلاً مترابطاً متكاملًا، لا ينفصل فيه أصلٌ أو فرع عن آخر، والتخلص من النظرة الجزئية له التي تُقصره على بعض جوانب الحياة، مثل دعوى الالتزام بالفروض الخمسة، وأخذ الاقتصاد أو السياسة أو الاجتماع، أو تصور الكون بعيداً عن العقيدة والشرعية.
- ٥- ترجمة الأخلاق والتعاليم الإسلامية إلى واقع عملي وسلوكي ملموس،

(١) انظر: الثقافة الإسلامية تخصصًا (ص: ٢٣)، والمدخل إلى الثقافة الإسلامية (ص: ١٠).

يعايشه المسلم في حياته العملية اليومية، باعتبار الإسلام نظاماً تطبيقياً في الحياة.

٦- بيان خصائص الإسلام وسموه، وإظهار وسطيته وقدرته على تحقيق السعادة في الدارين.

ب- آثار الثقافة الإسلامية:

إن أثر الثقافة الإسلامية على كافة الثقافات الأخرى من الأمور المسلم بها؛ لأن المسلمين أحرزوا نجاحات باهرة في مناطق شاسعة من العالم، لكن المهم أن يتبين أبناء الأمة موقعهم في هذا العالم، وموقف الأعداء والأصدقاء منهم؛ لأن ذلك أثراً عظيماً في حياتهم ومستقبلهم، ومن أهم آثارها:

١- أثرت الثقافة الإسلامية على الثقافة الأوروبية في مختلف الميادين، ومنها ميدان العقيدة والدين الذي ظهر في حركات الإصلاح الدينية التي قامت في أوروبا منذ القرن السابع حتى عصر النهضة الحديثة، فوجدَ عندهم من ينكر عبادة الصور، ومن ينكر كذلك الوساطة بين الله وبين عباده، ومن ينكر الاعتراف أمام القسيس؛ لأنه لا حقَّ له في ذلك بل يتضرع الإنسان إلى الله وحده في غفران ما ارتكب من إثم. وأكد كثير من الباحثين أن «لوثر» في حركته الإصلاحية كان متأثراً بما قرأه للفلاسفة العرب والعلماء المسلمين، من آراء في الدين والعقيدة والوحي^(١) وكان هذا التأثير عبر منافذ عدة: عن طريق بلاد الشام، وصقلية، والأندلس وغيرها.

٢- انتشار الإسلام وثقافته في الشرق الأقصى مع حركة التجار التي كانت إحدى قنوات الاتصال المهمة حيث نقل التجار المسلمون الكثير من مظاهر الثقافة الإسلامية إلى مختلف الشعوب في قارة آسيا وأفريقيا.

(١) انظر: في الثقافة الإسلامية، أحمد نوفل وآخرون (ص: ١٥٥).

٣- كما انتشرت الثقافة عبر حركة الترجمة حيث تُرجمت أمهات الكتب العربية والإسلامية إلى اللغات الأخرى في مختلف ميادين العلم والفلسفة في القرون الوسطى وعصر النهضة، وبداية العصر الحديث، ولذا ظهر الأثر البارز للثقافة الإسلامية على غيرها. وقد شهد العديد من الباحثين والمفكرين الغربيين على ذلك الأثر القوي الذي أحدثته الثقافة الإسلامية^(١).

على الرغم من هذه الآثار إلا أنه يلحظ في دراسة كثير من المستشرقين التهميش والتجهيل والإنكار لماثر العرب والمسلمين في العلوم والفلسفة، ويرجع سبب ذلك إلى تلك الصورة المشوهة عن المسلم وثقافته حتى أصبح الإسلام بموجبها عنصر جمود وتخلف في نظرهم، مع تجاهل إبداعاته.

(١) من هؤلاء على سبيل المثال (غوستاف لوبون) في كتابه (حضارة العرب)، و(استانوود كيب) في كتابه (المسلمون في تاريخ الحضارة)، و(زيغريد هونكه) في كتابها (فضل العرب على أوروبا) و(شمس العرب تسطع على الغرب).

مصادر الثقافة الإسلامية

تنقسم مصادر الثقافة الإسلامية إلى قسمين:

أولاً: مصادر شرعية أصلية، وهي الكتاب والسنة النبوية الصحيحة.

ثانياً: مصادر فرعية، وهي الإجماع والقياس وغيرهما^(١).

أولاً: المصادر الشرعية الأصلية:

المصدر الأول: القرآن الكريم:

هو كلامُ الله الذي أوحى به إلى نبيه محمد ﷺ بلفظه ومعناه والذي تعبدنا بتلاوته والعمل به.

وهو المصدرُ الأساسُ لهذه الثقافة، والمُشتملُ على أصولِ العلوم المختلفة، أنزله الله هدى ورحمة للعالمين، تبياناً لكل شيء، جعله الله كتابَ عقيدةٍ وهدايةٍ، وتربيةٍ وتعليم، وثقافة، حوى آداباً وقيماً وسلوكاً تنظمُ حياةَ الأممِ والأفراد في مختلفِ الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها.

فيه خبرٌ من قبلنا، ونبأٌ من بعدنا، وفصلٌ ما بيننا، من قال به صدق، ومن عمل به أُجر، ومن حَكَمَ به عدلٌ، ومن دعا إليه هُديٌ إلى صراطٍ مستقيم.

من مزايا القرآن:

١ - أن الله حفظه من التحريف في القرون السابقة، وسيبقى كذلك إلى قيام

(١) هناك فرق بين مصادر الثقافة الإسلامية، ومصادر التشريع الإسلامي، فالأولى أوسع من مصادر التشريع لأنها تشمل العلوم الإنسانية، كما تشمل الآداب والتراث الإسلامي.

الساعة كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

أما الكتب السابقة فقد أضيف حفظها إلى أصحابها فحرّفوها^(١)، قال تعالى: ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [المائدة: ٤٤].

٢- أن القرآن جاء مؤيداً ومصدقاً لكل الكتب السابقة ومهيماً عليها، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

٣- احتوى القرآن على شريعة عامة للبشر فيها كل ما يسعدهم في الدارين. قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٩٨]، وقال تعالى: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ تُعْرَىٰ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

٤- جمع القرآن كل ما كان متفرقاً من العقائد وأصول العبادات ومكارم الأخلاق في الكتب السابقة.

(١) أشار كتاب الله إلى هذا التحريف في قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيْسَ بِأُيُودٍ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

المصدر الثاني: السنة النبوية:

في اللغة: الطريقةُ والسيرةُ والأسلوبُ والنهج^(١).

وفي الاصطلاح: هي كلُّ ما صَدَرَ عن النبي ﷺ من قولٍ أو فعلٍ أو تقريرٍ أو صفةٍ خلقيةٍ أو خُلقيةٍ أو سيرة^(٢).

والسنة أنواع منها:

السنة القولية: مثل قوله عليه الصلاة والسلام: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»^(٣).

السنة العملية: مثل أفعالٍ وضوئه ﷺ وصلاته وحجّه.

السنة التقريرية: وهي ما أقرّه عليه الصلاة والسلام مما صَدَرَ عن أصحابه من قولٍ أو فعلٍ بسكوته، أو إظهار الرضا عنه واستحسانه.

ومن السنة: ما يتعلق بشأئله، من صفاته وأخلاقه ﷺ.

فالسنةُ هي المصدرُ الثاني بعد كتاب الله تعالى، والاعتمادُ عليها أمرٌ ضروري في بناء الثقافة الإسلامية؛ لأن القرآن جاء بالعموميات والكليّات^(٤) تاركاً التفاصيل إلى السنة، فلا يُعرفُ قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣] إلا بقول الرسول ﷺ: «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»^(٥)، وغير هذا من الأحاديث الموضحة لكيفية أداء الصلاة بجميع أركانها، وشروطها من فرض وسنة.

(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٤٠٩)، والمعجم الوسيط مادة: سنّ (١/ ٤٥٦).

(٣) انظر: علوم الحديث لابن الصلاح (ص: ١٢).

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب بدء الوحي، رقم (١) ومسلم، كتاب الإمارة، باب إنما الأعمال بالنية، رقم (١٩٠٧).

(٢) المرتكزات الأساسية في الثقافة الإسلامية (ص: ٤٧).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة والإقامة، رقم (٦٣١).

ولا قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]. إلا بقوله ﷺ: «خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ»^(١)، وغير هذا من الأحاديث الموضحة لكيفية أداء مناسك الحج الفرضية والسنية.

مكانة السنة مع القرآن تأتي على ثلاثة أحوال:

١ - أن تكون موافقة له، فيأتي الحكم في القرآن والسنة معاً، مثل الأمر بالصلاة والنهي عن الزنا.

٢ - أن تكون السنة بياناً للقرآن وتفسيراً له، مثل تفسير الزيادة في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، فسرّها ﷺ بالنظر إلى وجه الله تعالى^(٢)؛ وتفسيره ﷺ للظلم في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] فسرّها بالشرك^(٣).

٣ - أن تحجب السنة بزيادة حكم لم يرد في القرآن؛ مثل: إيجاب استئذان المرأة عند إرادة تزويجها، تحريم الجمع بين المرأة وعمتها، والمرأة وخالتها.

فالقرآن الكريم والسنة بينهما من التلازم، ما شهدت به كثير من الآيات والأحاديث، قال تعالى: ﴿وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

وقال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

وقوله ﷺ: «وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ كِتَابَ اللَّهِ

(٤) أخرجه مسلم، كتاب الحج، باب استحباب رمي الجمرة يوم النحر راكباً، رقم (١٢٩٧).

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى، رقم (١٨١).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب ظلم دون ظلم، رقم (٣٢).

وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي...»^(١) الحديث.

إنَّ ترجمة هذه المصادرِ إلى الواقعِ العمليِّ يتطلَّبُ تعلُّمَ كتابِ الله وسنةِ رسوله ﷺ عن قرب بقراءتها وفهمها، وتدبر معانيها.

ثانياً: المصادر الفرعية:

- ١ - الإجماع^(٢).
- ٢ - القياس^(٣).
- ٣ - التاريخ الإسلامي.
- ٤ - اللغة العربية.
- ٥ - التراث الإسلامي.
- ٦ - الخبرات الإنسانية النافعة.

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨).

(١) الإجماع: هو اتفاق جميع المجتهدين من المسلمين في عصر من العصور بعد وفاة الرسول ﷺ على حكم من الأحكام الشرعية العملية، وهو حجة يجب العمل به. لأن اتفاق جميع المجتهدين على رأي واحد مع اختلاف عقولهم ومعارفهم يدلُّ على أن هذا الرأي هو عين الحق والصواب (انظر: روضة الناظر وجنة المناظر، لابن قدامة المقدسي، (ص: ١٢٧).

(٢) القياس: حمل فرع على أصل في حكم بجامع بينهما. انظر: روضة الناظر، (ص: ٢٨٢).

التحديات التي نواجهها الثقافة الإسلامية

واجهت الثقافة الإسلامية تحديات عديدة متنوعة ومن أهمها:

أولاً: الغزو العسكري:

عانت الأمة الإسلامية من هجمات عسكرية ظالمة استهدفت وجودها وثقافتها منذ القدم، ومن ذلك:

تآلب الأحزاب من العرب المشركين على المدينة مع اليهود من الداخل في السنة الخامسة من الهجرة في غزوة الأحزاب المشهور في السيرة التي ذكرها الله سبحانه في سورة الأحزاب: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ [الأحزاب: ١٠].

حشود الروم على حدود الجزيرة العربية في أواخر حياة النبي ﷺ ومعركة مؤتة وتبوك وكذلك حشود الرومان والفرس في عهد الصديق والفاروق انتهت بمعركة اليرموك والقادسية.

الحروب الصليبية الشرسة (٤٩٠هـ - ٦٩١هـ) التي استهدفت الشام ومصر، وأدت إلى انشغال الأمة بها قرنين من الزمان.

ثم الهجومات التتري على العراق والشام وإسقاط الخلافة العباسية وتدمير الكتب وقتل العلماء في القرن السابع الهجري.

ثم الاستعمار الأوروبي للبلدان الإسلامية في القرنين الماضيين (١٧٩٨م - ١٩٦٢م)، ومحاولته مسح الثقافة الإسلامية واستنزاف خيرات الأمة.

وزامن ذلك الغزو الشيوعي على البلدان الإسلامية في آسيا الوسطى ونشر
الإلحاد ثم غزو أفغانستان والشيستان واستباحة دماء المسلمين واستعمار بلدانهم
ونهب خيراتهم.

وما نشاهده الآن من هجمة صهيونية شرسة زرعها الغرب^(١) في قلب العالم
الإسلامي لشردمة من اليهود اجتمعت من أنحاء العالم باختلاف لغاتهم
وعرقياتهم في هجرات متتابعة بمساعدة غربية مباشرة مع اعتداءاتهم المتكررة على
الفلسطينيين بل تجاوز العدوان على البلدان العربية.

وكان هذا الجسم الصهيوني بالمساعدة الغربية عاملاً مهماً في تأخر الأمة وإشغالها.

وما جرى من احتلال لأكثر من بلد إسلامي بحجج وهمية، وزامن ذلك
الضغط على المؤسسات الثقافية بضرورة التغيير الثقافي والمقصود منه تجفيف
منابع الثقافة الإسلامية، إضافة إلى تشويه الجمعيات الإسلامية الخيرية ورميها
أيضاً بتهمة دعم الإرهاب (مع أنها أوضح وسائل ترابط المجتمع الأهلي الذي
ينادون به في معظم الدول)، فتلك الجمعيات تدعو إلى الإسلام وتكفل الأيتام
وتقيم المستشفيات وتحفر الآبار وتعين الفقراء وتقيم المدارس وتصب في خدمة
الإسلام والمسلمين وخدمة الثقافة الإسلامية^(٢).

وهذه التحديات لن تقضي على دين الله تعالى فقد أخبر المولى سبحانه ببقاء
دينه وظهوره ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ
كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣].

(١) الغرب ليس شيئاً واحداً بل يجب التفريق بين الجهات الصهيونية والصليبية المعادية، وبين المنصفين
منهم، وبين الأغلبية التي تأثرت بوسائل الإعلام المعادية، ومن الممكن التأثير عليها وبيان الحق لها.

(٢) قال رئيس الوزراء الماليزي أمام اجتماع مجلس الكنائس العالمي (٢٦/٦/١٤٢٥ هـ الموافق
٣/٨/٢٠٠٤ م) في كوالالمبور: إن العالم الإسلامي يخشى حرباً دينية تحت ستار مكافحة الإرهاب.

وقال عليه الصلاة والسلام: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك»^(١).

وإن من حكم المولى سبحانه أن تقع هذه التحديات عقوبة للمعرضين ليعودوا ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

كما أنها بلاء للمؤمنين لرفعة الدرجات وتكفير السيئات ﴿الَّذِينَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا بِهِمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ١-٢]، وفيها تنقية للصف المسلم قال تعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١١].

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي..» رقم (١٩٢٠).

ثانياً: الغزو الفكري:

مجموعة من الجهود الفكرية التي تقوم بها أمة للاستيلاء على أمة أخرى أو التأثير عليها حتى تتجه وجهة معينة.

وهو أخطر من الغزو العسكري^(١) فهو يدخل غالب البيوت خلاف العسكري. كما أن كثيراً من الناس لا يشعرون به.

وسائل الغزو الفكري:

١- الإعلام: استغل الغربيون والمتغربون وسائل الإعلام المختلفة لحرب الإسلام، حيث أصبح المدافع عن أرضه وبلده إرهابياً والمحتل مدافعاً عن نفسه، ونظرة سريعة إلى بعض وسائل الإعلام ترينا مدى البلاء الذي تصبه ليل نهار لتشويه صورة الإسلام والمسلمين والإساءة إلى معتقداتنا وشعائرننا وسلفنا وعلمائنا، سبل من الشبهات التي تشكك في الدين وأحكامه، وسبل آخر من الأفلام والتمثيلات والمسرحيات التي تتهم بالإسلام، وتقوم بعرض نماذج من أنماط الحياة تضاد الإسلام في كل شيء، تمجد الجريمة، وتدعو إلى الفسق والفجور، وتكره في الحياة المستقيمة الفاضلة، وتتهم بالمسلمين والمسلمات، وتتخذ الدين هزواً، وتعرض ما حرم الله: الرقص الفاضح، وشرب الخمر، والكذب والدجل، وقد قامت للتافهين أسواق ضخمة في كل مكان باسم الفن^(٢).

وقد ازداد خطر هذه الوسيلة مع انتشار الفضائيات، وتنامي الشبكة العنكبوتية (الإنترنت) حيث نجد المواقع التي تثير الشبهات، وتشكك في العقائد، وتنشر

(١) انظر: موقع الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز في تعريف الغزو الفكري بالشبكة العنكبوتية وانظر الموسوعة الحرة ويكيديا بعنوان الغزو الفكري بالشبكة العنكبوتية.

(٢) انظر: نحو ثقافة إسلامية أصيلة، (ص: ٦٢-٦٤).

المذاهب الباطلة.

٢- الاستشراق: وهو دراسة الغربيين للشرق وعلومه وأديانه -خاصة الإسلام- لأهداف مختلفة^(١)، ومن أهمها تشويه الإسلام وإضعاف المسلمين.

ومن أهم نتائج المستشرقين في القرن العشرين دائرة المعارف الإسلامية التي صدرت بثلاث لغات: الإنجليزية والفرنسية والألمانية، وصدرت في عدة طبعات وترجمت إلى عدة لغات، وقد اشترك في تأليفها أكثر من (٤٠٠) مستشرق، وبلغت أكثر من (٣٠٠٠) مادة في أكثر من (١٠.٠٠٠) صفحة احتوت على معلومات مهمة عن الشرق والإسلام بالذات، كما أنها اشتملت على شبه ومطاعن متفرقة حول القرآن والعقيدة والشريعة الإسلامية وأعلام المسلمين بلغت أكثر من (٣٠٠) مطعن وانتقاص للعقيدة الإسلامية^(٢).

وقد ملئت كتابات المستشرقين بالتعصب الصليبي باعتراف كثير من المستشرقين، يقول برنارد لويس: «لا تزال آثار التعصب الديني الغربي ظاهرة في مؤلفات العديد من العلماء المعاصرين ومستترة في الغالب وراء الحواشي المرصوفة في الأبحاث العلمية»^(٣).

إن كثيراً من المستشرقين كانوا أداة للاستعمار، حيث تخلوا عن أمانتهم العلمية لتأييد المحتل، يقول مراد هوفمان، سفير ألمانيا في المغرب -وقد هداه الله للإسلام-: «والحق أن معظم المستشرقين عن وعي أو غير وعي كانوا أداة لخدمة

(١) المستشرقون لهم أهداف متنوعة منها أهداف مادية، وأهداف علمية، وأهداف استعمارية، وأهداف دينية وصليبية، وربما أسلم بعضهم، ولكن الحكم بالغالب وبالمؤسسات الاستشراقية الكبرى التي تهدف إلى صراع حضاري لهدم الإسلام وتشويهه.

(٢) مفتريات وأخطاء دائرة المعارف الإسلامية (١/ ٨٤-١٠١).

(٣) العرب والتاريخ، برنارد لويس، (ص: ٦٣).

الاستعمار، وإن كان بعض أولئك كانوا جواسيس للغرب بالفعل^(١)، وتتعاون المخابرات الغربية - لاسيما الأمريكية - مع مراكز الدراسات الاستشرافية، لاسيما فيما يتعلق بالحركات الإسلامية. وبلغ أعضاء رابطة دراسات الشرق الأوسط^(٢) الاستشرافية في أمريكا إلى قرابة (١٦٠٠) عضو سنة ١٩٨٦ م، ووصلت أعدادُ العناوين للموضوعات المنشورة عن الشرق الأوسط في الدوريات المتخصصة سنة ١٩٨٧ م إلى نحو (٧١) ألف مادة. كما أن كثيراً من المستشرقين ينظرون إلى الشرق والإسلام نظرة استعلائية، وقد ساق إدوارد سعيد^(٣) الشواهد العديدة لذلك في كتابه الشهير «الاستشراق».

٣- التنصير: وعلى الرغم من أن الأمم النصرانية تبتعد عن النصرانية، وعلى الرغم من بيعهم للكنائس في ديارهم، إلا أنهم حريصون على تنصير المسلمين، وبناء الكنائس في ديارنا، وقد رصدوا لذلك مئات الملايين من الدولارات، وأرسلوا البعثات التنصيرية مجهزة بكل ما يمكن أن يحقق الهدف الذي قامت من أجله، وعلى الرغم من الصعاب التي تقف في طريقهم، إلا أنهم ماضون في هذا الطريق، وهم يصطادون المسلمين الجهلة، وينشبون أنبياءهم في فقرائ المسلمين، حيث يقدمون لهم بعض ما يحتاجون إليه مقابل تركهم لدينهم وعقيدتهم^(٤)، بينما نجد العكس فيمن يُسلم من الغربيين، حيث يسلم المتعلمون والمفكرون.

وأهم وسائل التنصير: التعليم والصحة والإعلام واستغلال الكوارث

(١) الإسلام كبديل، مراد هوفمان، مؤسسة بافاريا للنشر ومجلة النور الكويتية، الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م، (ص: ٢١٢).

(٢) مصطلح «الشرق الأوسط» مصطلح غربي لطمس الهوية العربية والإسلامية ولإدخال إسرائيل فيه.

(٣) مفكر فلسطيني الأصل، أمريكي الجنسية، نصراني الديانة، فضح في كتاباته الاستعلاء الغربي، توفي سنة ١٤٢٤ هـ.

(٤) نحو ثقافة إسلامية أصيلة، (ص: ٦٣-٦٤).

والحروب والفقر.

٤- تشجيع العلمانية في البلاد الإسلامية: وذلك بإقصاء الإسلام من شتى شؤون الحياة السياسية والاقتصادية والتعليمية والاجتماعية.

٥- محاربة الدعوة الإسلامية: حيث استغلَّ الأعداءُ بعضَ الهجمات الإرهابية لمحاربة الدعوة الإسلامية لا سيما الجمعيات الخيرية الإسلامية والزجَّ بها في تلك الأحداث واتهامها بدعم الإرهاب مع عدم ثبوت ما يدينهم.

٦- التغريب والعولمة الثقافية: وهي باختصارٍ فرضُ الثقافة الغربية عن طريق المنظمات والمؤتمرات الدولية ووسائل الإعلام المختلفة.

وإن كان للعولمة -بشكل عام- وجوهاً مفيدة في التقنية والاتصال، والتعارف والمعلومات؛ فإن لها جوانبَ خطيرةً في الهيمنة السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية.

ويهمنا هنا ما يؤثر على الثقافة الإسلامية بدرجة كبيرة وهو الهيمنة الثقافية وفرض القيم الغربية وتغريب المجتمعات المسلمة عن طريق استغلال التفوق التقني والسياسي والاقتصادي والعسكري لاختراق الثقافات الأخرى ومصادرة ثقافات الشعوب وفرض الأنماط الغربية.

ونجد أن الغرب لا يسعى لنشر قيمه الاجتماعية فحسب على الرغم من عدم الاقتناع الواسع بها قيماً، بل إنه يفرضها عبر المؤتمرات الدولية والضغط على الدول التي لا تستجيب، حيث توالى مؤتمرات المنظمات الدولية بهذا الخصوص، مثل مؤتمر نيروبي عام ١٩٨٥م، مؤتمر القاهرة عام ١٩٩٤م، ومؤتمر بكين عام ١٩٩٥م، ومؤتمر اسطنبول عام ١٩٩٦م، ثم مؤتمر نيويورك عام ١٩٩٩م، ثم مؤتمر بكين، ثم نيويورك أيضاً عام ٢٠٠٠م، ومحور هذه المؤتمرات يدور حول

الأسرة والمرأة والطفل، مركزاً على الحقوق الجنسية، والحق في الإنجاب والإجهاض، والشذوذ، وقضية المساواة بين الرجال والنساء، والمساواة في الميراث.. إلخ، وكل هذا من منظور الثقافة الغربية العلمانية المادية الإباحية^(١) التي تُبيح الزنى واللواط وتمنع تعدد الزوجات.

وفي الفصل السابع من وثيقة مؤتمر السكان جاء الحديث عن هذه الإباحية الجنسية، فيقول: إنها حالة الرفاهية البدنية والعقلية والاجتماعية الكاملة، المنطوية على أن يكون الأفراد (لاحظ تعبير الأفراد) من جميع الأعمار أزواجاً وأفراداً (كذا) فتیاناً وفتيات، مراهقين ومراهقات، قادرين على التمتع بحياة جنسية مرضية ومأمونة (لاحظ عدم اشتراط الحلال والشرعية) هي كالغذاء، حق للجميع، ينبغي أن تسعى جميع البلدان لتوفيره في أسرع وقت ممكن، في موعد لا يتجاوز عام ٢٠١٥ م. أي أنه أكثر من مباح، فالسعي لتحقيقه بجميع البلدان في أسرع وقت ممكن، وقبل سنة ٢٠١٥ م، واجب على جميع البلدان، بل ولا تكتفي هذه الوثيقة بذلك، وإنما تتجاوز هذه الإباحية حيث تدعو للتدريب والترويج والتعزيز لهذا السلوك الجنسي المأمون والمسؤول^(٢).

وها هو المستشرق الألماني «هاملتون جب» يجعل هدف كتابه «وجهة الإسلام» قضية التغريب، ويتساءل إلى أي حد وصلت حركة تغريب الشرق؟ وما هي العوامل التي تحول دون تحقيق هذا الهدف؟^(٣).

(١) العولمة الثقافية وموقف الإسلام منها، د. إسماعيل علي محمد، دار الكلمة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م، (ص: ٢٧).

(٢) انظر وثيقة برنامج عمل المؤتمر الدولي للسكان والتنمية المنعقد بالقاهرة ٥-١٥/٩/١٩٩٤ م، الترجمة العربية الرسمية، الفصل الثامن الفقرات ٣١-٣٥. نقلاً عن مخاطر العولمة على الهوية الثقافية، د. محمد حمارة، (ص: ٢٧).

(٣) شبهات التغريب، أنور الجندى، المكتب الإسلامي، بيروت - لبنان، ١٣٩٨ هـ (ص: ١٢).

آثار التحديات التي تواجه الثقافة الإسلامية:

١ - تشويه الإسلام وإثارة الشبهات حول القرآن الكريم والسنة النبوية وعقيدة الإسلام وشريعته، وما يحدث الآن من محاولة لربط الإسلام بالإرهاب هو جزء من هذه الحملة.

٢ - تفریق المسلمين وإزالة الوحدة الإسلامية والدعوة إلى القوميات المتنوعة، وقد كانت الرابطة التي تجمع الشعوب الإسلامية هي الرابطة الإسلامية، فشجع الغرب الصليبي الشعوب المختلفة على المناداة بالقوميات التي تنسب إليها الأمم المختلفة، فنادى العرب بالقومية العربية، والأتراك بالتركية الطورانية، ونادى الأكراد بالكردية، وبذلك تفسخت عرى الرابطة الواحدة التي كانت تجمع هذه الأمة وتوحدّها، وقد كان ظهور هذه الدعوات سبباً في إضعاف الخلافة التركية العثمانية وتحطّمها.

وقد أغرق دعاة الضلال في دعوتهم عندما أحيوا الحضارات القديمة لإيجاد مزيد من الانقسام والفرقة، فرأينا الدعوة إلى الفرعونية، والدعوة إلى البابلية، والآشورية.. وغيرها^(١).

إن الإسلام يشجع الوطنية الحقة والقومية الهادفة القائمة على التعاون على البر والتقوى كما قال سبحانه: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [التوبة: ٢]، ويحارب العصبية والنعرات الجاهلية المنافية للوحدة الإسلامية وقد قال ﷺ: «مَنْ قُتِلَ تَحْتَ رَايَةِ عِمِّيَّةٍ، يَدْعُو عَصْبِيَّةً، أَوْ يَنْصُرُ عَصْبِيَّةً، فَقَتْلُهُ جَاهِلِيَّةٌ»^(٢) إن أيّ وطنية وقومية يجب ألا تتعارض مع الوحدة الإسلامية أو تكون بديلاً عنها، بل يجب أن

(١) نحو ثقافة إسلامية أصيلة، (ص: ٥).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن، رقم (١٨٥٠).

تُسَخَّرَ لجمع كلمة المسلمين ووحدتهم، والعرب لم يجتمعوا إلا بالإسلام، وقد أعزهم الله بإنزال القرآن الكريم بلغتهم وجعل الحرمين في بلادهم، واختار النبي ﷺ منهم، وقد قال عمر رضي الله عنه: «نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فمهما ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله»^(١).

إن الرابطة الحقيقية بين المسلمين هي رابطة العقيدة وجميع الروابط الأخرى هي فرعٌ منها مثل رابط الجوار والقراية والقبيلة والوطن.

٣- الجهل بالإسلام وعقائده وأحكامه في كثير من بلاد الإسلام وانتشار البدع والخرافات والمذاهب الباطلة كالقاديانية والبهائية وانتشار الأفكار العلمانية المتطرفة والتكفيرية الغالية.

٤- الهزيمة النفسية لدى بعض المسلمين واهتزاز الثوابت لديهم ونشوء طبقة من المثقفين المستغربين المنبهرين بالغرب وثقافته.

٥- إضعاف اللغة العربية التي اختارها الله لكتابه كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢]، وانتشار اللهجات المحلية.

٦- إقصاء شريعة الإسلام من الحكم وتشجيع العلمانية في البلاد الإسلامية.

٧- إفساد التعليم وإضعاف التعليم الإسلامي: ومدارس القرآن الكريم والمناداة بعلمنة التعليم والدعوة إلى التعليم المختلط^(٢).

٨- إفساد المرأة: لقد حَرَصَ الكفار على هذا، لأن فسادها يُفسدُ الأبناء والأزواج، فأخرجوها من بيتهن، وهتكوا حجابهن، وزينوا لها التمرد على دينها

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير، الإمام عبدالرؤوف المناوي، دار المعرفة، بيروت - الطبعة الثانية، ١٣٩١هـ (٢/ ٢٩٠).

(٢) انظر: غزو في الصميم، عبدالرحمن الميداني، (ص: ٢٠٠).

بمختلف الأساليب، وزعموا أن تحضرها وتقدمها لا يكون إلا إذا سارت مسيرة المرأة في أوروبا^(١)؛ وأفغانستان مثال حي على هذا؛ فعندما احتلوها لم ينقلوا إليها التقدم الصناعي والتقني، وإنما بدأوا بإسقاط حجاب المرأة وإنشاء دور السينما^(٢).

هدف عدونا :

إن هدف عدونا ذوبان شخصيتنا، وذلك بالقضاء على مقومات كيانها وعلامات القوة فيها، واحتوائها بأخلاق الضعف والانحلال والإباحية حتى لا تقوى على مواجهة التحديات، وذلك أخطر أهداف العدو، حيث إخراج أجيال ضعيفة لا تؤمن بحقيقتها، ولا تؤمن بربها، ولا تستطيع أن تصمد أمام الخطر وأمام التحدي^(٣).

وقد أخبر المولى سبحانه بخطورة طاعة الكافرين والانسحاق معهم فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠].

وأخيراً.. إنهم لن يرضوا منا بالتنازلات المحدودة وبعض الطاعة ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

(١) نحو ثقافة إسلامية أصيلة، (ص: ٦٢-٦٣).

(٢) انظر في ت*** بالتحديات العالم الإسلامي في مواجهة التحديات الغربية، د. وهبة الزحيلي دار أفكار ٢٠١٠م.

(٣) انظر: شبهات التغريب، (ص: ٦٣).

سبل مواجهة التحديات الثقافية:

سبل مواجهة التحديات الثقافية تأخذ أبعاداً متنوعة منها:

١ - تعزيز الهوية بأقوى سلاح، وهو العودة إلى الإسلام، وتربية الأمة عليه بعقيدته القائمة على توحيد الله سبحانه، والتي تجعل المسلم في عزة معنوية عالية ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، وبشريعته السمحة وأخلاقه وقيمته الروحية، وتقوية الصلة بالله سبحانه وتعالى واليقين بنصره وتمكينه للمؤمنين إذا استجابوا لربهم وقاموا بأسباب النصر، فالهزيمة الحقيقية هي الهزيمة النفسية من الداخل حيث يتشربُ المنهزمُ كلَّ ما يأتيه من المتصر، أما إذا عززت الهوية ولم تستسلم من الداخل فإنها تستعصي ولا تقبل الذوبان.

٢ - العناية بثقافتنا الإسلامية وباللغة العربية في وسائل الإعلام ومناهج التعليم، وتسهيل تدريسها وتحبيبها للطلاب، ومن العناية باللغة العربية تفعيل التعريب والترجمة والتقليص من التعلق باللغات الأخرى إلا في حدود الحاجة اللازمة.

٣ - إبراز خصائص الإسلام وعالميته وعدالته وحضارته وثقافته وتاريخه للمسلمين قبل غيرهم، ليستلهموا أمجادهم ويعتزوا بهويتهم.

٤ - العمل على نهوض الأمة في شتى الميادين دينياً وثقافياً وسياسياً وعسكرياً واقتصادياً وتقنياً، ومحاربة أسباب التخلف والفساد، وعلينا أن نغير ما بأنفسنا من تخلف وتقاعس، فإن من سنن الله سبحانه وتعالى سنة التغيير ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

٥ - مواجهة التحديات بالتعليم والتدريب والتثقيف والتحصين ورفع الكفاءة وزيادة الإنتاج ومحاربة الجهل وخفض معدلات الأمية المرتفعة عند المسلمين.

٦- تقليص الخلافات بين المسلمين حكومات وشعوبًا وجماعات بالاعتصام بكتاب الله ﷻ ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]. ثم التعامل معها إن وجدت بثقافة إيجابية فاعلة ناصحة حتى لا يجد الأعداء ثغرة من خلالها.

٧- ضمان الحرية الثقافية وتدعيمها، حيث إن حرية الثقافة، وإن كانت تنبع من العدالة في توزيع الإمكانيات والإبداعات الإنسانية على الأفراد، فإنها في الوقت نفسه عامل أساسي في إغناء الحياة الثقافية وزيادة عطائها. ولكن لا يجوز فهم الحرية على أنها فتح للباب أمام كل تعبير، وقبول كل فكر، ولكن الحرية المقصودة هي الحرية المنضبطة بضوابط الشرع^(١).

٨- أن تقوم وسائل الإعلام بواجباتها في الحفاظ على الهوية ودعمها، بدلًا من استيراد البرامج التي تهدم الهوية دون نظر أو تمحيص؛ كما أن على الدول والعلماء وقادة الرأي ورجال الأعمال الضغط على وسائل الإعلام الخاصة كل بما يستطيع لمراعاة هوية الأمة وقيمها.

٩- أن يقوم التعليم بتعزيز الهوية وكشف سلبيات العولمة والتغريب، ويتحتم على الإعلام التربوي استخدام كافة الوسائل والأساليب والطرق المتاحة كي ينجح في تأصيل القيم والمهارات والمعارف والمعلومات في مؤسسات المجتمع ومنظّماته، وتحصين الأطفال ضد ثقافة الاستهلاك والتغريب، وتقديم مادة غنية ثرية تُحدث أثرًا إيجابيًا، وتترك صدى قويًا في نفسية التلاميذ صغارًا وشبابًا وتساعد على اكتشاف ما يملكون من طاقات ومهارات^(٢).

(١) انظر: العولمة وقضية الهوية الثقافية في ظل الثقافة العربية المعاصرة، (ص: ٢٦٣).

(٢) مسؤولية الإعلام في تأكيد الهوية الثقافية، (ص: ٣٠).

١٠ - تنشيطُ التفاعل والحوار الثقافي الإسلامي مع ثقافات الأمم الأخرى^(١)، وأن نتعرفَ على الآخرين وثقافتهم، والكشف عن مواطن القوة والضعف في الثقافات المختلفة لا سيما الغربية، ودراسة سلبياتها وإيجابياتها برؤية إسلامية متفتحة، للاستفادة من إيجابياتها^(٢)، وأن نُثري ثقافتنا العربية الإسلامية بما نراه ينفعنا ولا يضرنا من الثقافات الكونية الأخرى، وفي الوقت نفسه نُعرّف تلك الثقافات العالمية بما لنا من عقيدة وقيم وتراثٍ وتقاليد اجتماعية عريقة^(٣)، وأن يواكب ذلك عملية أخرى هي عملية التخلص من الإحساس بمركزية الغرب ونزع صفة العالمية والعلمية والمطلقية عن حضارته^(٤).

١١ - تشجيعُ المؤسسات الخيرية والدعوية داخل البلاد الإسلامية وخارجها على ممارسة عملها ودعمها بكل طريق ماديٍّ ومعنويٍّ، وعدم السقوط في فخ الأعداء بتصيد أخطائها وتشويه سمعتها عند حدوث خطأ ما، وإنما بالنصيحة الإيجابية الفاعلة، وما نراه بفضل الله تعالى من مؤسسات إسلامية ودعوية مساعدة للمسلمين للحفاظ على هويتهم لا سيما خارج الدول الإسلامية، سواء كانت مراكز أو مدارس إسلامية أو وسائل إعلامية، كمواقع الإنترنت وشركات الإنتاج الإعلامي الإسلامي أو إذاعات القرآن الكريم، أو مكاتب دعوة الجاليات التي تميزت بها المملكة العربية السعودية والتي تثمر دخول آلاف المسلمين الجدد كل عام، أو مدارس وجمعيات تحفيظ القرآن الكريم، إلى غير ذلك من المؤسسات التي تُسهم ضدّ التحديات الثقافية، لذا لا نعجب من أن تكون هذه المؤسسات

(١) العولمة والهوية المؤتمر العلمي الرابع لكلية الآداب والفنون، (ص: ١٢٦).

(٢) صراع الثقافة العربية الإسلامية مع العولمة، (ص: ٢٥١).

(٣) انظر: صراع الثقافة العربية الإسلامية مع العولمة، (ص: ٢٥١).

(٤) العالم من منظور غربي، د. عبدالوهاب المسيري، منشورات دار الهلال، القاهرة - مصر، فبراير ٢٠٠١م، (ص: ٢٥٣-٢٥٤).

الخيرية أحد استهدافات الأعداء، ومحاولة رميها بالإرهاب بكل طريق ومحاربة أنشطتها وتشويه سمعتها وتجفيف مواردها^(١).

(١) انظر: كتاب القطاع الخيري ودعاوى الإرهاب على المؤسسات الإسلامية، د. محمد بن عبدالله السلومي، كتاب البيان، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٤ هـ، (ص: ٢٠٩).

موقف المثقف المسلم من الثقافات الأخرى

تتقاسم العالم ثقافاتٌ مختلفةٌ، تمتدُّ كلُّ منها في مناطقٍ كبيرةٍ من العالم، وقد سيطرت الثقافة الغربية في هذا العصر على بقية الثقافات، نظرًا لأنها مدعومةٌ عسكريًا وإعلاميًا واقتصاديًا وسياسيًا، لذا سيكون التركيزُ في بيان الموقف منها بسبب ذلك، وهناك عدة اتجاهات في الموقف منها، وهي:

١- الاتجاه السلبي: يرى أتباعه عدم الأخذ أو الاتصال بأيٍّ من الثقافة والحضارة الغربية، وعدم الاستفادة من كل ما انبثق عنها من منافع في مختلف المجالات، يرفضون الثقافة الغربية، لأنهم ينظرون لسلبياتها وما تحمله من أمراضٍ لذا جاء الرفض لها ككل، وهذا الموقف لا يتناسب مع الأصول الإسلامية الصحيحة التي تدعو إلى الاستفادة من كلِّ شيءٍ لا يصادم أصول الإسلام؛ لأنَّ الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحقُّ بها.

٢- الاتجاه التغريبي: يدعو أصحابه إلى الأخذ بكلِّ أسباب الثقافة والحضارة الغربية، مقبلاً على كلِّ معطياتها خيرها، وشرها، من علم، وصناعة، وثقافة، وحتى أسلوب الحياة؛ لأنهم يرون أنَّ الثقافة كلٌّ لا يتجزأ، إما أن تؤخذ كلها أو تترك كلها. ويكثر هذا الاتجاه لدى العلمانيين أمثال طه حسين وغيره والحداثيين.

٣- الاتجاه التوفيقى: يرى أتباعه التوفيق بين الثقافتين الإسلامية والغربية، وفي حال حدوث تعارضٍ، يرون أنه لا بد من تقريب بعض مبادئ الإسلام التي تتعارض مع حضارة الغرب وثقافته، وتطوير تلك المبادئ حتى تواكب حضارة الغرب.

انطلق هذا الاتجاه من الحاجة الماسة لمواجهة كثير من القضايا المستجدة، لكنه انتهى إلى المطالبة بالنظر في التشريع الإسلامي ككله، والقيام بمحاولة التوفيق

بين الثقافة الإسلامية والغربية من خلال الدعوة إلى تقريب المبادئ بينهما، وتطوير الإسلام ليتناسب مع معطيات الثقافة الغربية، مع الميل إلى تبني الثقافة الغربية، والبحث عن الأدلة المؤيدة لذلك من أقوال العلماء والمفكرين المسلمين بحجة أن مصالح المسلمين تتطلب هذا التطوير، وفي هذا مسخ للإسلام وتشريعاته، وتشويش على المسلمين مع تفريق وحدتهم.

٤ - الاتجاه المعتدل: يرى أتباعه أن يحتفظ المسلمون بإسلامهم وثقافتهم المتمثلة في الكتاب والسنة، مع الوقوف عند حدود الفكر الإسلامي الأصيل، مع الاستفادة من خير ما أفادت منه المدنية الغربية في شتى المجالات من العلوم التجريبية، فيرون أخذ المناسب من الحضارة الغربية، وترك ما لا يناسب منها؛ لأن الحكمة ضالة المؤمن يأخذها من كل أحد ما لم تعارض ثقافته^(١).

وهذا الاتجاه الأخير هو الاتجاه الصحيح الذي يحاول الوقوف في وجه تحديات الثقافة الغربية مع الاستفادة من المفيد فيها.

هذه المواقف الأربعة بتوجهاتها المختلفة، أثرت في المجتمع الإسلامي بصورة لا يمكن تجاهلها؛ لأنها أدت إلى اضطرابات سياسية، وتصدعات اجتماعية، وصراعات داخلية، أنهكت الأمة، ومزقت شملها، وأحدثت الفرقة بين صفوفها، مما ساعد كثيرًا على تغلغل الفكر والثقافة الغربية بطريقة قوت حدة التناقض في الحياة العملية والمعنوية، نتيجة للتناقض الحاد بين المواقف والأفكار المحيطة بالفرد المسلم، الذي وقع أسيرًا لها، والوهن العقدي، والفوضى الفكرية، والتخبط السلوكي.

(١) انظر الثقافة الإسلامية ومدى تأثيرها في الفكر المعاصر (ص: ٣٨)، ومدخل إلى الثقافة الإسلامية (ص: ٣٨).

الحوار بين الحضارات

أولاً: الإسلام دين الحوار:

الحوارُ منهجٌ قرآني، فقد كلّم الله ملائكته واستمع منهم ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠].

وكذلك رسله ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]، وحتى مع الكافرين ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيْ أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ (١٢٥) قال كذلك أنتك ءايتنَا فَنَسِينَهَا وَكَذٰلِكَ الْيَوْمَ نُنسِيْ ﴿[طه: ١٢٥-١٢٦].

وحتى مع إبليس ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِيْ مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

والقرآن مليٌّ بمحاورات الرسل مع أقوامهم ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].

وتأمل حوار إبراهيم عليه السلام مع مدعي الربوبية ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرٰهِيْمَ فِي رَيْبِهِ أَنِ ءَاتٰهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرٰهِيْمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرٰهِيْمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وحوار موسى مع فرعون مدعي الألوهية والربوبية في سُورٍ عديدة في القرآن، وكذلك بقية الرسل عليهم صلوات الله وسلامه حيث يحاورون أقوامهم بالحكمة لدعوتهم إلى الله وبيان الحق لهم والرد على شبهاتهم.

وهذا القرآن يحكي حوار النبي ﷺ مع امرأة ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١].

وحضارتنا الإسلامية على مدى التاريخ هي حضارة الحوار فقد حاور علماء المسلمين كافة أهل الملل والنحل بالمنهج القرآني والدعوة إلى الخير^(١).

ثانياً: أهم أهداف الحوار في الإسلام:

١ - الدعوة إلى الإسلام، وعبادة الله وحده لا شريك له: وهذا أسمى هدف ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

ويدخل في ذلك إبراز محاسن الإسلام والرد على شبهات أعدائه وإيضاح الحقيقة العظيمة في الحكمة من خلق البشر وما يُراد منهم وما يراد بهم وما مصيرهم.

فالحوار مطلب إسلامي لكي نقوم بواجبنا تجاه الأمم الأخرى ليس لإفادة أنفسنا فحسب بل لفائدة الأمم الأخرى أيضاً لنوصل إليها الخير الذي أمرنا به.

فالأمة الإسلامية هي صاحبة الرسالة الأخيرة، وعليها واجب البلاغ، قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

٢ - تحقيق وظيفة الإنسان في الأرض: وهي الخلافة وعمارة الأرض ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]^(٢).

(١) انظر: موقف الإسلام من الحضارات الأخرى، د. محمد نورد شان، بحث مقدم إلى ندوة الإسلام وحوار الحضارات، غير منشور، مكتبة الملك عبد العزيز، الرياض - السعودية، محرم ١٤٢٣ هـ، (ص: ٦).

(٢) انظر: مدخل إسلامي لحوار الحضارات، ص (١١-١٢).

٣- تبادل العلوم النافعة: وحل الإشكالات القائمة والتعاون على الخير ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

أهداف باطلة من الحوار:

١- موالاة الكفار ومودتهم من دون المؤمنين، فقد جاءت النصوص القطعية في النهي عن ذلك، قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ [آل عمران: ٢٨].

٢- التنازل عن شيء من ثوابتنا العقدية أو الشرعية، أو المشاركة في الدعوات المغرضة لوحدة الأديان التي تساوي الإسلام بغيره وخلط الحق بالباطل، أو مشاركة الكفار في باطلهم، وقد نهى الله نبيه عن ذلك فقال سبحانه: ﴿قُلْ يَتَّخِذُ الْكَافِرُونَ ① لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ② وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ③ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ④ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ⑤ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١-٦]، وقال أيضاً: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩].

ثالثاً: آداب الحوار:

من أهم آداب الحوار:

١- حسن القصد من الحوار: وذلك بالإخلاص لله والرغبة في طلب الحق، قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

٢- العلم: فلا حوار بلا علم، والمُحَاوِرُ الجاهل يفسد أكثر مما يصلح، وقد ذم الله سبحانه وتعالى المجادل بغير علم ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ [الحج: ٨].

العلم عام في كافة مواضع الحوار، فيشمل العلم بالإسلام وعقيدته وحضارته

والعلم بالمحاورين وخلفياتهم وكافة ما يحتاج إليه في الحوار.

فالمُحَاوِر المسلم داع إلى الله يجب أن تكون دعوته بعلم وبصيرة كما قال سبحانه: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨].

فالعلم بالإسلام وحضارته وشبهات المخالفين في غاية الأهمية في حوار غير المسلمين لإقناعهم ورد شبهاتهم، فضلاً عن عدم الانخداع والتأثر بها.

٣- التزام القول الحسن، وتجنب منهج التحدي والإفحام: حيث إن أهم ما يتوجه إليه المُحَاوِر التزام الحسنى في القول والمجادلة، ففي محكم التنزيل: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٥٣]، ﴿وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]^(١).

وعلينا أن ننأى بأنفسنا عن أسلوب الطعن والتجريح والهزاء والسخرية، وألوان الاحتقار والإثارة والاستفزاز.

٤- التواضع واللين والرفق من المُحَاوِر وحسن الاستماع وعدم المقاطعة والعناية بما يقوله المُحَاوِر: فهو أدعى للوصول إلى الحقيقة واستمرار الحوار، وهذا ما علمناه القرآن، فقد أمر الله نبيه موسى وأخاه هارون عليهما السلام عند مخاطبة فرعون الذي طغى وتجبر وادعى الألوهية والربوبية، فقال سبحانه: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤].

٥- الحلم والصبر: فالمُحَاوِر يجب أن يكون حليماً صبوراً، فلا يغضب لأتفه سبب، فإن ذلك يؤدي إلى النفرة منه والابتعاد عنه، والغضب لا يوصل إلى إقناع الخصم وهدايته، وإنما يكون ذلك بالحلم والصبر، والحلم من صفات المؤمنين قال

(١) أصول الحوار وآدابه في الإسلام، (ص: ١٣).

تعالى: ﴿وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]. وعندما قال رجلٌ للنبي ﷺ أوصني، قال: «لا تغضب»^(١) وكررها مراراً.

ومن أعلى مراتب الصبر والحلم مقابلةُ الإساءة بالإحسان، فإن ذلك له أثره العظيم على المُحاور، وكثيرٌ من الذين اهتدوا لم يهتدوا لعلم المُحاور واستخدامه أساليب الجدل، وإنما لأدبه وحسن خلقه واحتماله للأذى ومقابله بالإحسان، وقد نبه الله ﷻ الداعين إليه إلى ذلك الخلق الرفيع وأثره وفضل أصحابه، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٣٣) وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٣-٣٥].

٦- العدل والإنصاف؛ يجب على المُحاور أن يكون منصفاً فلا يرد حقاً، بل عليه أن يبدي إعجابه بالأفكار الصحيحة والأدلة الجيدة والمعلومات الجديدة التي يُوردها مُحاوره وهذا الإنصاف له أثره العظيم لقبول الحق، كما تضيفي على المُحاور رُوح الموضوعية.

والتعصبُ وعدمُ قبولِ الحقِّ من الصفات الذميمة في كتاب الله فإن الله أمرنا بالإنصاف حتى مع الأعداء فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

والإسلامُ ينطلقُ في الحوارِ من التكافؤِ بين البشرِ لا تفاضلٍ لعزِّ كما حكى الله عن اليهود قولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُمْ﴾ [المائدة: ١٨]، أو لونٍ كما يدعي

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، رقم (٥٧٦٥).

العنصريون البيض في أوروبا، أو طبقية كما هي عند الهندوس، وإنما بصلاحيهم، ولتأمل آية قرآنية مفتوحة بالمبدأ ومقررة وجود الاختلاف ومبينة أهمية التعارف وخاتمة بميزان التفضيل ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

وهذا الاختلاف من آياته سبحانه ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ السِّنِينَ كُمْ وَالْوَنُكُمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

فالإسلام يقرر أن الاختلاف حقيقة إنسانية طبيعية ويتعامل معها على هذا الأساس ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [المائدة: ٤٨].

فوجود الاختلاف أمر واقع وله حكم إلهية ويجب التعايش وفق ما أمر الله من الدعوة والنصيحة^(١).

وأخيرًا هذه نظرنا للحوار والاختلاف، ولكن عندما ننظر إلى الواقع ودعوات الحوار الصادرة من الغرب لنا أن نتساءل: كيف يؤتي الحوار ثماره في العالم اليوم بين الشرق والغرب أو بين الشمال والجنوب وهو يصاحب الهيمنة والاستعلاء، والظلم والجور، والاحتلال ولغة السلاح^(٢).

أي حوار ينادي به الغرب مع هذا العدوان والظلم ولغة الاستعلاء، وفرض المصطلحات واستغلال التفوق الإعلامي لتشويه الآخرين.

كيف نثق بهذا الحوار الذي يهدف إلى نمط جديد من الدبلوماسية لتكريس

(١) انظر: مجلة المعرفة، العدد ١٠١ شعبان ١٤٢٤ هـ، موضوع قيم الإسلام، الحوار الانفتاح على العالم، ص: (٢٦-١٨).

(٢) انظر: من أجل حوار بين الحضارات، (ص: ٩).

الظلم ومصالح تتعلق بالاقتصاد والسياسة ومواصلة الحرب والصراع والاحتلال.

إن الغرب مطلوبٌ منه قبل أن يتحدث عن الحوار ونشر الديمقراطية (والشرق الأوسط الكبير) إن كان يريد خيرًا بالآخرين يجب تخفيفُ الهوة السحيقة بين البلدان الغنية والفقيرة، وعليه مساعدةُ البلدان على التنمية لا توريثها في الديون والفقر، وفرض الإملاءات عليها، ومساعدة البلدان التي خربتها الحروب كالصومال وأفغانستان وغيرها على إنهاء ذلك الوضع، بل أن تكفَّ يدها عن إشعالِ الفتن في تلك البلدان.

بعد ذلك يُقال أننا نرفض الحوار والتسامح؛ ومن يتهمنا بذلك؟ إنه المستعلي الظالم المحتل لأرضنا والساعي لتشويه ديننا وثقافتنا، ومع ذلك فلا نزال نقولُ إننا مع دفاعنا عن ديننا وثقافتنا وأرضنا وأنفسنا فإننا نرى أن الحوار هو خيارٌ مهم لتحقيق أهدافنا العليا القائمة لمصلحة البشرية.

رابعاً: السنن الإلهية المتعلقة بالحضارات^(١):

يبينُ الله تعالى في آياتٍ كثيرات من القرآن الكريم أنه سبحانه قد خلق هذا الكونَ وفق منهجٍ سننيٍّ مطرد، وأنه قد أخضع كل أمر فيه لسنة (= قانون) لا تبدل ولا تتحول وأن هذه السنن لا تسري فحسب على المخلوقات المادية، بل تسري كذلك على حياة الأمم والأفراد، ولهذا نجدُ القرآن الكريم يوجهنا مرارًا وتكرارًا للنظر في قصص الأمم الغابرة لاستنباط تلك السنن التي على أساسها تنهضُ الأمم أو تنحط أو تبيد! ومن ذلك قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ ﴾ [الروم: ٤٢] وذلك لأن التاريخ - بمنظور القرآن الكريم - هو المختبرُ الحقيقي لصوابِ الفعل البشري، ومن ثم فإن العودةَ

إلى صفحات التاريخ وفهم سنن الوجود الاجتماعي يُكسبنا القدرة على تسخير هذه السنن في بناء المجتمع الفاضل الذي يعيد هذه الأمة إلى موقع الشهادة على العالمين، كلما أراد لها ربُّ العزة سبحانه حيث قال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

ومن هذا المنطلق فقد بينت آيات عديدة من القرآن الكريم سنن المعادلة الحضارية التي لا تتخلف، والتي تحكم مصائر البشر على اختلافهم وتنوعهم، ومن هذه السنن:

١ - سنة التدافع الحضاري: وهي التي بينها قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، فقد اقتضت حكمة الخالق ﷻ أن يكون بين البشر نوعٌ من التدافع يمنع استئثار طائفةٍ من البشر بمصير البشرية كلها إلى نهاية التاريخ، وسنة التدافع هذه ماضيةٌ إلى يوم القيامة باعتبارها سنةً مطردة، وليس كما زعم المفكر الأمريكي (هنتنغتون) وأضرابه من أن الصراع على وشك التوقف، وأن السلام العالمي لن يلبث أن ينشر جناحيه على العالم! نعم قد تهدأ حدة الصراع حيناً من الزمان حتى ليخيل إليك أن البشرية قد بلغت أخيراً سنَّ الرشيد وآمنت بأن (الصلح خير!) إلا أن النظرة المدققة في صفحات التاريخ تُنبئك أن مرحلة السلام ما هي إلا وقفةٌ عابرةٌ كاستراحة المحارب بين جولتين.

٢ - سنة التداول الحضاري: وقد بينها قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، فليس لأمةٍ من أمم الأرض أن تستأثر بمشعل الحضارة حتى آخر الزمان، وقد تناوبت على حمل هذا المشعل حتى الآن أمم كثيرة جداً، ذكر منها المؤرخ البريطاني الشهير (أرنولد تونبي) في موسوعته القيمة

(دراسة في التاريخ) أكثر من (٦٥٠ أمة) ثم تخلت عنها لتسلمها إلى غيرها، وهكذا هي سنة الله في خلقه، ومن ثم فإن الزعم بنهاية التاريخ عند نموذج حضاري بعينه كما فعل (فوكوياما) وقرينه (هتسغتون) ما هو إلا من قبيل (التسويق) الفاشل لبضاعة لن تجد لها بعد حينٍ قصيرٍ من الزمان من يشتريها! وليس انهيارُ حلم الحضارة (الاشتراكية) عنا ببعيد!

٣- سنة الهلاك أو التدهور: وهي سنةٌ جارية لن ينجو من قبضتها أيُّ من أمم الأرض حتى المؤمنة منها، لقوله تعالى: ﴿وَلَنْ مِّن قَرِيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْفَيْكَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء: ٥٨] فليس لأمةٍ مهملتها أوتيت من جبروت سياسي أو تقدم تقني أو إنجاز علمي أن تبقى في القمة حتى آخر الزمان، بل الكلُّ إلى انحدارٍ أو هلاكٍ أو عذابٍ مدمر قبل يوم القيامة! ومن أبلغ دروس التاريخ أن الانهيارَ غالباً ما يجيءُ وأهلُ الحضارة في قمة النشوة، كما بين الله ﷻ في كتابه العزيز حيث يقول: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَىٰ أَتْنَهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤]، فإذا ظنت الأمة أنها قد بلغت أوج مجدها، وأنها قد ملكت زمام الأمور جاءها أمرُ الله لينحيها عن دفة القيادة، وحلَّ في ديارها الخرابُ والدمارُ، وهذه أيضاً سنةٌ جارية مطردة من سنن الله في الخلق نجد شواهدَها في صفحات التاريخ، وفي أطلال الحضارات البائدة التي تملأ الأرض!

٤- سنة أن التطور الحضاري متاح للجميع: فليس التقدم الحضاري حكراً على أمةٍ من أمم الأرض دون غيرها كما زعمت بعض النظريات العنصرية (النازية مثلاً) وكما يزعم اليوم دعاة الغرب الذين يعتقدون أن التاريخ قد انتهى

عند نموذجهم الليبرالي، والحضارة أيضًا ليست حكرًا على المؤمنين دون الكافرين كما يخيل لبعضهم فيظنون أنهم (شعب الله المختار!) أو أنهم (أولياء الله وأحباءه!) وفي هذا يقول تعالى: ﴿كَلَّا نُمَدِّدُ هَتُوْلَاءَ وَهَتُوْلَاءَ مِنْ عَظَمَائِكَ وَمَا كَانَ عِطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠]، ومن ثم فإنَّ الحالة الحضارية قد تقوم على قيم إيمانية وأسس أخلاقية، وقد تقوم على قيم وأسس غير هذه كما هي حال الحضارة الغربية اليوم!

وهكذا نجد أن الحضارة الغربية السائدة اليوم، والتي يروج (بعضهم!) لنموذجها مدعيًا أنها النموذج الجدير بالافتداء، وأن التطور البشري قد وقف عندها باعتبارها قد بلغت القمة، لا تخرج عن سنن الله في خلقه، وأنها تندرج في إطار تلك السنن، وأنها ليست سوى مرحلة من مراحل التاريخ، وسوف يحى يوم قريب أو بعيد فيطويها التاريخ في قبضته التي لا ترحم ويحوها إلى مجرد ذكرى في سجلاته التي علاها الغبار! ومن يدري.. فقد تغيب حتى عن ذاكرة التاريخ نفسه فلا يعود يذكر من أطلالها شيئًا كما فعل مع كثير من الحضارات التي بادت واندست ولم تحفظ لنا سجلات التاريخ عنها شيئًا! فهل من مذكر؟^(١).

(١) انظر السنن الإلهية الكونية والاجتماعية لمحمد عمارة دار السلام للطباعة والنشر ٢٠٠٩. مدونة السنن الكونية الإلكترونية دراسة السنن الإلهية وأثرها لـ أبو مريم محمد الجريلى. سنن الطبيعة والمجتمع في القرآن الكريم دراسة تأهيلية، د. بكار محمود الحاج الطبعة الأولى ١٤٣٣، دار السنوادر.